المطلب الثاني

طلب العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات

obeikandl.com

obeikandl.com

المطلب الثاني

طلب العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات

قال رسول الله ﷺ : «**إن أدنى أهل النار عذابًا يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه**» .

فانظر إلى من خفف عليه واعتبر بمن شدد عليه، ومهما تشككت في شدة العذاب بالنار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به، واعلم أنك أخطأت في القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها، وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هربًا مما هم فيه، وقد ورد في بعض الأخبار: أن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا**﴾ (سورة النبأ: ٢١-٢٦) .

قال ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿**جَزَاءً وِفَاقًا**﴾ أي: هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملون بها في الدنيا[١] .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور: وقوله تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا**﴾ (سورة النبأ: ٢٧-٢٨) .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٤٦٥).

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر، وهما أصلان: عَدَمي وهو إنكار البعث والآخر وجودي وهو نسبتهم لرسول الله ﷺ والقرآن للكذب فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي وهو حرمانهم من البرد والشراب، وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي وهو الحميم يراق على أجسادهم والغساق يمر على جراحهم[1].

وقال تعالى عن أصحاب الشمال: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ (سورة الواقعة: ٤٢-٤٥).

فجازاهم بطعام كانت تأنف منه البهائم في دار الدنيا وهو الزقوم: الشجرة المنتنة البشعة المنظر يملئون منه البطون، ويشربون عليه من الحميم، الذي ضُوعف احماؤه فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين، جزاءً وفاقًا، وعندما يرى أهل النار من الظالمين في الدنيا ما فيها من أهوال وما ذاقوه من عذاب وما نزل بهم من خسوف الأهوال فعند ذلك يطلبون العودة إلى الدنيا لعمل الصالحات.

قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزَّ وجلَّ في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدًا، يقولون: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾، فيقول الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (سورة غافر: ١١-١٢).

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ (سورة السجدة: ١٢)، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٤).

فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾، فيجيبهم الله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (سورة فاطر: ٣٧).

---

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٣٠-٣٨).

ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (سورة المؤمنون:١٠٦-١٠٧)، فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ (سورة المؤمنون:١٠٨). فلا يتكلمون بعدها أبدًا، وذلك غاية شدة العذاب.

قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ (سورة ابراهيم:٢١)، قال: صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة، ثم قالوا: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص.

obeikandl.com

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ٢٧-٢٨).

يذكر الله تعالى حال الكفار إذ وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال قالوا: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يتمنون أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحًا ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا ﴾ أي: لو تراهم، ﴿ وُقِفُوا ﴾ ماض لفظًا والمعنى به الاستقبال أي: إذ توقفون وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه لصدوره عمن لا خلاف في خبره، ﴿ فَقَالُوا ﴾ وعطف عليه بالفاء المفيدة للتعقيب لأن ما شاهدوه من الهول قد علموا أنه جزاء تكذيبهم بإلهامٍ أوقعه الله في قلوبهم أو بإخبار ملائكة العذاب فعجلوا فتمنوا أن يرجعوا.

وحرف النداء في قوله: ﴿ يَا لَيْتَنَا ﴾ مستعمل في التحسر لأن النداء يقتضي بُعد المنادى فاستعمل في التحسر لأن المتمنَّى صار بعيدًا عنهم أي: غير مفيد لهم كقوله تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ (سورة الزمر: ٥٦)[1].

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ فإنهم ما طلبوا العودة إلى الدنيا رغبة ومحبة إلى الإيمان بل خوفًا من العذاب الذي عاينوه جزاءً على ما كانوا عليه من الكفر فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار[2].

---

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٦، ص١٨٥).

(٢) ابن كثير «تفسير القرآن» (جـ٢، ص١٣١).

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: بل بدا لهم ما كان يبدو لهم في الدنيا فأظهروه الآن وكانوا يخفونه وذلك أنهم كان يخطر لهم الإيمان لما يرون من دلائله أو من نصر المؤمنين فيصدهم عنه العناد والحرص على استبقاء السيادة والأنفة من الاعتراف بفضل الرسول وبسبق المؤمنين إلى الخيرات قبلهم وفيهم ضعفاء القوم وعبيدهم . . .

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٢).

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ارتقاء في إبطال قولهم حتى يكونوا بمنزلة السليم الجدلي في المناظرة، أي: أجيبت أمنيتهم وردوا إلى الدنيا لعادوا للأمر الذي كان النبي ينهاهم عنه وهو التكذيب وإنكار البعث وذلك لأن نفوسهم التي كذبت فيما مضى تكذيب مكابرة بعد إتيان الآيات البينات هي النفوس التي أرجعت إليهم يوم البعث فالعقل العقل والتفكير التفكير وإنما ما تمنوا ما تمنوا من شدة الهول فتوهموا التخلص منه بهذا التمني فلو تحقق تمنيهم وردوا واستراحوا من هذا الهول لغلبت أهواؤهم رشدهم فنسوا ما حل بهم ورجعوا إلى ما ألفوا من التكذيب والمكابرة.

وفي هذا دليل على أن الخواطر الناشئة عن عوامل الحس دون النظر والدليل لإقرار لها في النفس ولا تسير على مقتضاها إلا ريثما يدوم ذلك الإحساس فإذا زال زال أثره؛ فالانفعال به نسبة انفعال العجماوات، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ تذييل لما قبله أي: أن الكذب سجية لهم قد تطبعوا عليها من الدنيا فلا عجب أن يتمنوا الرجوع ليؤمنوا فلو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه فإن الكذب سجيتهم[1].

(١) «التحرير والتنوير» (جـ٦، ص١٨٦، ١٨٧).

يقول سيد قطب: إنه المشهد المقابل لمشهدهم في الدنيا . . . مشهد الاستخزاء والندامة والخزي والحسرة . . . في مقابل مشهد الإعراض والجدال والنهي والنأي والادعاء العريض!

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ﴾ لو ترى ذلك المشهد! لو تراهم وقد حبسوا على النار لا يملكون الإعراض والتولي! ولا يملكون الجدال والمغالطة!

لو ترى لرأيت ما يهول! ولرأيتهم يقولون: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهم يعلمون الآن أنها كانت ﴿ آيَاتِ رَبِّنَا ﴾ ! وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات وعندئذ سيكونون من المؤمنين! . ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون!

على أنهم إنما يجهلون جبلتهم فهي جبلة لا تؤمن وقولهم هذا عن أنفسهم: أنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل أو أنهم ما يقولون قولتهم هذه إلا لأنه تكشف لهم سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون وأنهم ناجون وأنهم مفلحون.

﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ إن الله يعلم طبيعتهم ويعلم إصرارهم على باطلهم ويعلم أن رجفة الموقف الرهيب الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود. . .

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ويدعهم السياق في هذا المشهد البائس وهذا الرد يصفع وجوههم بالمهانة والتكذيب![1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٢، ص١٠٦٧، ١٠٦٨).

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٣).

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ أي: يوم القيامة وما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار.

﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: تركوا العمل به وتناسوه في الدار الدنيا.

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: أنهم لم يعترفوا بأن ما جاءت به رسل الله عزَّ وجلَّ أنه كان الحق إلا بعدما رأوا أهوال يوم القيامة وأذاقهم الله من أليم عذابها فقالوا: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ أي: في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه أو ﴿نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٧-٢٨).

كما قال ها هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه[1].

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٢، ص٢٢٥).

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩-١٠٠).

قال ابن كثير: يخبر الله تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين والمفرطين في أمر الله وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا لعمل الصالح وإصلاح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾، فذكر الله تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم.

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ كلا: حرف ردع وزجر أي: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه، ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أي لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم، ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أي لأنها كلمة أي: سؤاله الرجوع ليعمل صالحًا هو كلام منه، وقوله لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحًا ولكان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾.

فقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ، فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله[1].

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص٢٦٣).

قالت عائشة رضي الله عنها: «ويل لأهل المعاصي من أهل القبور، تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم: حيةٌ عند رأسه وحيةٌ عند رجليه يقرضانه حتى يلتقيا في وسطه، فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾».

قال مجاهد: البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: ما بين الدنيا والآخرة ليسوا من أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا من أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ (سورة إبراهيم:١٦)، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (سورة إبراهيم:١٧)، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يستمر به العذاب فلا يزال معذبًا في الأرض[1].

قال سيد قطب: وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ إنه مشهد الاحتضار وإعلان التوبة عند مواجهة الموت وطلب الرجعة إلى الحياة لتدارك ما فات والإصلاح فيما ترك وراءه من أهل ومال وكأنما المشهد معروض اللحظة للأنظار مشهود كالعيان! فإذا الرد على هذا الرجاء المتأخر لا يوجه إلى صاحب الرجاء إنما يعلن على رؤوس الأشهاد: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا...﴾ كلمة لا معنى لها ولا مدلول وراءها ولا تنبغي العناية بها أو بقائلها. إنها

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص٢٦٤).

كلمة الموقف الرهيب لا كلمة الإخلاص المنيب، كلمة تقال في لحظة الضيق ليس لها في القلب رصيد!

وبها ينتهي مشهد الاحتضار، وإذا الحواجز قائمة بين قائل هذه الكلمة والدنيا جميعًا، فلقد قضي الأمر وانقطعت الصلات وأغلقت الأبواب وأسدلت الأستار.

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فلا هم من أهل الدنيا ولا هم من أهل الآخرة إنما هم في ذلك البرزخ إلى يوم يبعثون[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص٢٤٨٠، ٢٤٨١).

obeikandl.com

قال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٦-١١١).

هذا إنذار ووعد ووعيد لكل من استهزأ بعباد الله الصالحين ومن تجرأ عليهم ونال منهم بالأذى. وتقريع من الله وتوبيخ لهم ما ارتكبوه من الكفر والمآثم التي أوبقتهم في النار وليعلم كل من استهزأ بالدعوة والدعاة أن هذا مآلهم في الآخرة وهذه مقالتهم يوم يرون العذاب لا بشرى لهم.

فحينما يسألهم ربهم: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٥)، ويوبخهم على سوء صنيعهم وكبير فعالهم وكفرهم بآيات الله بعد إذ جاءتهم يقولون: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾.

قال القرطبي: وأحسن ما قيل في معنى هذه الآية: غلبت علينا أهواؤنا ولذاتنا، فسمى الأهواء واللذات شقوة لأنهما يؤديان إليهما كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (سورة النساء: ١٠)، لأن ذلك يؤدي بهم إلى النار.

وقيل: ما سبق في علمك وكتب علينا في أم الكتاب من الشقاوة.

﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ أي: كنا في فعلنا ضالين عن الهدى وليس هذا اعتذار منهم إنما هو إقرار، ويدل على ذلك قولهم: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ طلبوا

الرجعة إلى الدنيا كما طلبوها عند الموت ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى الكفر ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا بالعود إليه، فيجابون بعد ألف سنة: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: ابعدوا في جهنم: كما يقال للكلب: اخسأ أي: ابعد.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ: «إن أهل جهنم يدعون مالكًا فلا يجيبهم أربعين عاماً ثم يرد عليهم: إنكم ماكثون، قال: هانت والله دعوتهم على مالك ورب مالك.

قال: ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ قال: فيسكت عنهم مقدار الدنيا مرتين، قال: ثم يرد عليهم: اخسئوا فيها فوالله ما نبس القوم بكلمة وما هو إلا الزفير والشهيق من نار جهنم فتشبه أصواتهم بصوت الحمير أولها زفير وآخرها شهيق»[1].

وقال ابن عباس ﷺ: «يصير لهم نباح كنباح الكلاب»[2].

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إلي.

﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي.

﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ (سورة المطففين: ٢٩-٣٠). أي: يلمزونهم استهزاءً، ثم أخبر تعالى عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على أذاكم لهم واستهزائكم بهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار[3] ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ

(١) رواه الترمذي.
(٢) «تفسير القرطبي» (جـ٦، ص١٠٢-١٠٣).
(٣) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص٢٦٦).

﴿الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (سورة المطففين: ٣٤-٣٦).

قال سيد قطب: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٥)، وكأنما يخيل إليهم - وقد سمعوا هذا السؤال - أنهم مأذونون في الكلام مسموح لهم بالرجاء وأن الاعتراف بالذنب قد يجدي في قبول الرجاء: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾.

وهو اعتراف تتجلى فيه المرارة والشقوة . . . ولكن كأنما هم قد تجاوزوا حدهم وأساءوا أدبهم فلم يكن مأذونا لهم في غير الإجابة على قدر السؤال بل لعله كان سؤالاً للتبكيت لا يطلب عليه منهم جواب، فهم يزجرون زجرًا عنيفًا قاسيًا.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ اخرسوا واسكتوا سكوت الأذلاء المهينين فإنكم لتستحقون ما أنتم فيه من العذاب الأليم والشقاء المهين.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وكذلك لم يكن جرمكم أنكم كفرتم فحسب واقتصرتم على أنفسكم بالكفر وهو جرم عظيم، إنما بلغ بكم السفه والتوقح أن تسخروا ممن آمنوا وراحوا يرجون غفران ربهم ورحمته وأن تضحكوا منهم حتى ليشغلكم هذا الهزر عن ذكر الله ويباعد بينكم وبين التدبر والتفكر في دلائل الإيمان المبثوثة في صفحات الوجود . . . فانظروا اليوم أين مكانكم ومكان أولئك الذين كنتم منهم تضحكون!

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ هذا الرد القاسي المهين وبيان أسبابه وما في هذا البيان من ترذيل وتبكيت[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص٢٤٨١-٢٤٨٢).

قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ (سورة إبراهيم: ٤٤-٤٥).

يقول الله تعالى عن قيل الذين ظلموا عند معاينة العذاب: ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ كقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ (سورة المؤمنون: ٩٩)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ﴾ (سورة المنافقون: ٩)، وقال تعالى: مخبراً عنهم في حال محشرهم: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (سورة السجدة: ١٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾ (سورة الأنعام: ٢٧)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ (سورة فاطر: ٣٨).

وقال تعالى ردًا عليهم في قولهم هذا: ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه وأنه لا معاد ولا جزاء فذوقوا هذا بذلك.

قال مجاهد: ﴿ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ أي: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة كقوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (سورة النحل: ٣٨).

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن

لكم منها معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (سورة القمر: ٥)[1].

قال سيد قطب: قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفًا فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادًا!

﴿أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون وكأننا في الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها. فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فكيف ترون الآن؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا؟! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصةً أمامكم مثلاً بارزًا للظالمين ومصيرهم المحتوم: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾.

فكان عجبًا أن تروا مساكن الظالمين أمامكم خالية منهم وأنتم فيها خلفاء، ثم تقسمون مع ذلك: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾.

وعند هذا التبكيت ينتهي المشهد، وندرك أين صاروا وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء.

---

(١) ابن كثير «تفسير القرآن» (جـ٢، ص: ٥٥٨).

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين، فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين سكنوا من قبلهم وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم. ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين، فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين وتصور مصائرهم للناظرين، ثم يؤخذون أخذة الغابرين ويلحقون بهم، وتخلو منهم الديار بعد حين[٢].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٤، ص ٢١١٢).

openkandl.com

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (سورة فاطر: ٣٦-٣٧).

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾ كما قال تعالى: ﴿ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴾ (سورة طه: ٧٤)، وكما قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون**»(١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٧). فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك.

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (سورة الزخرف: ٧٤-٧٥)، وقال جلَّ وعلا: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٩٧)، ﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ (سورة النبأ: ٣٠).

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ أي: هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق. وقوله جلَّت عظمته: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ أي: ينادون فيها ويجأرون إلى الله عزَّ وجلَّ بأصواتهم: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ أي: يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكاذبون؛ فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم كما قال

---

(١) رواه مسلم.

تعالى مخبراً عنهم في قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ (سورة غافر: ١١-١٢).

أي: لا يجيبكم إلى ذلك لأنكم كنتم كذلك ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ولذا قال ها هنا: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ أي: أو ما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم؟!

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أعذر الله تعالى إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله تعالى إليه، لقد أعذر الله تعالى إليه»[1].

﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي: فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء مدة أعماركم فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال[2].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾

قال سيد قطب: فلا هذه ولا تلك حتى الرحمة بالموت لا تنال![3]

قال الزمخشري: في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يتصارخون يفتعلون الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة كصرخة حُبلى أسلمتها قبيلتها.

﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ زيادة في التحسر على ما عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به، والمعنى: أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نحسبه صالحًا فنعمله[4].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٣, ٥٧٨).
(٣) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٢٩٤٥).
(٤) «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيوب الأقاويل في وجوه التأويل» (جـ٣، ص٣١٠).

قال تعالى: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (سورة الزمر: ٥٥-٥٩).

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ القرآن العظيم.

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ ﴾ أي: يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ويود لو كان من المؤمنين المخلصين المطيعين لله عزَّ وجلَّ.

﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿ وْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: تَود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (سورة فاطر: ١٤)».

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الآيات.

فأخبر الله عزَّ وجلَّ أن لو ردوا لما قدروا على الهدى، فقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (سورة الأنعام: ٢٨).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني، فتكون عليه حسرة، قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، قال: فيكون له شكر»**[1].

ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا وقامت حججي عليك وكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها[2].

قال الغزالي: ولعمري الإشادة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة وما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بما سبق في حقك، فإن قلت: وما الذي سبق به القضاء في حقي؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها هو أن

---

(١) رواه النسائي.

(٢) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٦٠).

تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كُلاً ميسر لما خلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا ويحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شراً إلا وتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضي عليك؛ فإن دلالة ذلك على العاقبة.

قال عيسى عليه السلام: «كم من جسد صحيح، ووجه صبيح، ولسان فصيح، غداً بين أطباق النار يصيح».

وقال داود عليه السلام: «إلهي لا صبر لي على حر شمسك فكيف صبري على حر نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك؟»، فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار وأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون، وأن هذا أمر قد قُضي وفُرغ منه.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة مريم: ٣٩)[1].

(١) «مكاشفة القلوب» (ص١٧٧).

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ (سورة الشورى: ٤٤-٤٥).

يقول الله تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له، وأنه من هداه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ (سورة الكهف: ١٧).

ثم قال تعالى مخبرًا عن الظالمين: ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أي: يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي: النار ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ أي: الذل الذي اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى.

﴿ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ قال مجاهد: يعني ذليل، أي: ينظرون إليها مسارقة خوفًا منها والذي يحذرون منه واقع بهم لا محالة وهو أعظم مما في نفوسهم! أجارنا الله من ذلك ﴿ إِنَّ الْخَاسِرِينَ ﴾ أي: الخسار الأكبر ﴿ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أي: ذهب إلى النار فعدموا لذتها في دار الأبد وخسروا أنفسهم، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقربانهم فخسروهم.

﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي: دائم سرمدي أبدي لا خروج لهم منها ولا محيد لهم عنها[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص١٢٠).

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ والظالمون كانوا طغاة بغاة فناسب أن يكون الذل مظهرهم البارز في يوم الجزاء.

إنهم يرون العذاب فيتهاوى كبرياؤهم ويتساءلون في انكسار: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ في هذه الصيغة الموحية باليأس مع اللهفة والانهيار مع التطلع إلى بارقة للخلاص! وهم يعرضون على النار ﴿خَاشِعِينَ﴾ لا من التقوى ولا من الحياء ولكن من الذل والهوان! وهم يعرضون منكَّسي الأبصار لا يرفعون أعينهم من الذل والعار ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وهي صورة شاخصة ذليلة.

وفي ظل هذا المشهد يوجه الخطاب إلى المعاندين المكابرين ليستجيبوا لربهم قبل أن يفجأهم مثل هذا المصير فلا يجدون لهم ملجأ يقيهم ولا نصير ينكر مصيرهم الأليم[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٣١٦٨).

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(سورة المنافقون: ١٠-١١).

يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهيًا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك مخبرًا لهم بأنه مَنِ الْتهى بمتاع الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ويسأل طول المدة ولو شيئًا يسيرًا ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آت كل بحسب تفريطه.

وحين يُري الظالمين مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فإنهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم فعندئذ يقول الظالم: ﴿ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

فرد عليهم الله عزَّ وجلَّ قائلاً: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي: لا ينظر أحد بعد حلول أجله وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رد لعاد إلى شر ما كان عليه؛ ولهذا قال: ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٤، ص٣٧٣).

فبعد ضم الله عزَّ وجلَّ رسوله والمؤمنين إلى جانبه ويضفي عليهم من عزته وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله! وأي تكريم بعد أن يوقف الله سبحانه رسوله والمؤمنين إلى جواره ويقول: ها نحن أولاء! هذا لواء الأعزاء، وهذا صف العزيز! ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (سورة المنافقون:٨)، وصدق الله فجعل العزة صفو الإيمان في القلب المؤمن، العزة المستمدة من عزة الله تعالى، العزة التي لا تهون ولا تهن ولا تنحني ولا تلين ولا تزايل القلب المؤمن في أحرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان، فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة ﴿ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾، وكيف يعلمون وهم لا يتذوقون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصيل؟ لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله ﷺ وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ويبرؤا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

والأموال والأولاد مشغلة وملهاة إذا لم يستيقظ القلب ويدرك غاية وجوده ويشعر أن له هدفًا أعلى يليق بالمخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفات الإلهية في حدود طاقته البشرية. وقد منحه الله الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لا لتلهيه عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ويلهه عن ذكر الله ليتم له هذا الاتصال بالمصدر ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

وأول ما يخسرونه هو هذه السمة. سمة الإنسان. فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي به صار الإنسان إنسانًا. ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء مهما يملك من مال ومن أولاد.

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم ﴾، فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق .

﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ فيترك كل شيء وراءه لغيره وينظر فلا يجد أنه قدم شيئًا لنفسه وهذا أحمق الحمق وأخسر الخسران.

ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين! وإني له هذا: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾؟ وأنَّى له ما يتقدم به؟ ﴿ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

إنها اللمسات المنوعة في الآية الواحدة. في مكانها المناسب. بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين. ولواذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين . . . فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الإيمان وألا يغفلوا عن ذكر الله وهو مصدر الأمان.

وهكذا يربي الله المسلمين بهذا القرآن الكريم[1].

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٦، ص٣٥٨١).

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة السجدة: ١٢-١٤).

يقول سيد قطب: إنه مشهد الخزي والاعتراف بالخطيئة والإقرار بالحق الذي جحدوه وإعلان اليقين بما شككوا فيه وطلب العودة إلى الأرض لإصلاح ما فات في الحياة الأولى وهم ناكسوا رؤوسهم خجلا وخزيًا ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا ولكن هذا كله يجيء بعد فوات الأوان حيث لا يجدي اعتراف ولا إعلان.

وقبل أن يعلن السياق جواب استخزائهم الذليل يقرر الحقيقة التي تتحكم في الموقف كله وتتحكم قبل ذلك في حياة الناس ومصائرهم: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ لو شاء الله لجعل لجميع النفوس طريقًا واحدًا هو طريق الهدى كما وحد طريق المخلوقات التي تهتدي بإلهام كامن في فطرتها وتسلك طريقة واحدة في حياتها من الحشرات والطير والدواب والخلائق التي لا تعرف غير الطاعات كالملائكة، ولكن إرادة الله اقتضت أن يكون لهذا الخلق المسمى بالإنسان طبيعة خاصة يملك معها الهدى والضلال ويختار الهداية أو يحيد عنها ويؤدي دوره في هذا الكون بهذه الطبيعة الخاصة التي فطره الله عليها لغرض وحكمة في تصميم هذا الوجود، ومن ثَم كتب الله في قدره أن يملأ جهنم من الجنة ومن الناس الذين يختارون الضلالة ويسلكون الطريق المؤدي إلى جهنم.

وهؤلاء المجرمون المعروضون على ربهم وهم ناكسوا رؤوسهم هؤلاء ممن حق عليهم القول ومن ثم يقال لهم: ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾، يومكم هذا الحاضر فنحن في المشهد في اليوم الآخر . . . ذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم وإهمالكم الاستعداد له وأنتم في فسحة من الوقت ذوقوا ﴿ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾ . . والله لا ينسى أحدًا ولكنهم يعاملون معاملة المهملين المنسيين، معاملة فيها مهانة وفيها إهمال وفيها إزدراء ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ويسدل الستار على المشهد وقد قيلت الكلمة الفاصلة فيه وترك المجرمون لمصيرهم المهين ويحس قارئ القرآن وهو يجاوز هذه الآيات كأنه تركهم هناك وكأنهم شاخصون حيث تركهم! وهذه إحدى خصائص التصوير القرآني المحيي للمشاهد الموحي للقلوب[1].

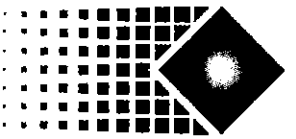

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥، ص٢٨١٢).